سهل بن هرون

٣

[تناول الاستاذ محمد كرد علي في الجزئين السابقين الكلام على بيت سهل بن هرون ونسبه ومذهبه واخلاقه وطرف يتعلق في الكتابة واشهر تآليفه وحياته السياسية وحياته العلمية وطرفا يسيرا من نثره وشعره . وهو يتابع الكلام في هذا الجزء على نثره المترجم وشعره]

ومن كلامه (سهل بن هرون) يعزي بعض المهنئين بأجل الثواب : ادخل من المصيبة على عاجل المصيبة ، وقال في الامن : مصيبة في يغيرك لك ثوابها خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها . وقال في سوق كل بذي مقالة ان يبدأ بحمد الله قبل استحقاقها ، كما يبدأ بالنعمة قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلان يفدم الزمان لكم خير من ان يقدم بكم . ومن كلامه : العقل الذي يقوم مقام العشق ما سلم من غلبة الشهوات وخلص من تذكار الزلات . وكتب الى جعفر بن يحيى [illegible]

[illegible] اذا ما اتى يوم يفرق بينهما ... بموت ولكن اينت الذي تخاف

وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحسب له ، اي لا يعتد به . وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها . وقال محمد بن زياد الزيادي البصري : وجدت على سهل بن هرون في بعض الايام فهجرته فكتب الي : « اما بعد فالسلام على عبدك ووداع ذي يظن بك في غير مقلية لك ، ولا سيابة عنك ، بل استسلام للبلوى في امرك ، واقرار بالعجزة عن استطاقك ، الى اوان فيأتك ، او يجعل الله لنا دولة من رحمتك والسلام » . وكتب في اسفل الكتاب :

ان كنت اخطأت او اسأت فتى ... عنوك ، مأوى الفضل والمنن

اتيت ما استحق عن خطأ ... فجد بما تستحقه من محسن

وهذا من الفظائع مكارم الاخلاق يجلى ، وهو يستوفي معاجيه .

ومن محاسن نوادره قيل لسهل لمه خاطب بعض الامراء فقال : ايها الكذاب الكذاب ، فقال : ويحك الحاحظ ان اباك الجذيل الخلاف ، فتكلم سأله رقعة يكتب بها الى الحسن بن سهل يلتمسه على ضائقة لحقته ، فكتب رقعة يوبخه بها ودفعها اليه ، فاوصلها الى الحسن فقال : ما اظرفك ضحك لا واقف عليها ، الجذيل واذا فيها مكتوب :

ان الضمير اذا سألتك حاجة لابي الهذيل خلافُ ما أُبدي
فاضحهُ روح اليأس ثم امدد لهُ حبل الرجاء بمخلف الوعدِ
وألن لهُ كفًّا ليحسن ظنهُ في غير منفعة ولا رفد
حتى اذا طالت شقاوة جدّهِ وغنائهِ فاجبههُ بالرد
وان استطعت لهُ المضرة فاجتهد فيما يضر بالغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعتهُ وقّع فيها: «هذه لك الويل صفتك لا صفتي» وامر لابي الهذيل بالف دينار فعاد اليهِ فعاتبهُ فقال سهل: ترى اين عزب عنك الفهم؟ اما سمعت قولي ان الضمير خلاف ما أُبدي، فلم يكن ضميري الخير ما قلت هذا. قال الجاحظ هذه من مغالطات سهل وبلاغتهِ. وروى الثعالبي قال: «حاجة ابي الهذيل» يضرب مثلاً للحاجة، يسألها الانسان لغيره وهو يضمر ضد ما يظهر، ولا يحب قضاءها، إما بخلاً بجاههِ واما لحاجة اخرى في نفسهِ. قال وكان ابو الهذيل سار الى سهل بن هرون الكاتب وكان خاصًّا بالحسن ابن سهل يسألهُ الكلام في امرهِ، ويستعينهُ على ضائقة دفع اليها، فسار سهل الى الحسن فكلمهُ وقال لهُ: قد عرفت ايها الامير حال ابي الهذيل ومحلهُ وقدرهُ في الاسلام وانهُ متكلم قومه، والرادّ على اهل الالحاد، وقد فزع اليك لاضافة هو فيها، فوعدهُ ان ينظر لهُ ما يصلح حالهُ. وربما كانت ابيات سهل متبعثة من كوتو لاحظ بعد ان كلم الحسن ابن سهل بشأن ابي الهذيل شيئًا من التنور، فلما أُريد على الشفاعة بابي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الابيات، ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة

وابو الهذيل هذا هو شيخ المأمون وكان يقول فيهِ «اطلّ ابو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الانام» وكان يأخذ من السلطان في كل سنة ستين الف درهم ويفرقها على اصحابهِ

وانشد الجاحظ لسهل يهجو رجلاً:

من كان يعمر ما شادت اوائلهُ فانت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق ان تأبى فعالمم وانت تحوي من الميراث ما تركوا

واجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيهِ على الموعظة الحسنة. وهو القائل:

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من ان يراني غنياً عنهُ بالياس
فلا يراني اذا لم يرعَ آصرتي مستمرئًا دوراً منهُ بايـاس
لا اطلب المال كي أغنى بفضلتهِ ما كان مطلبهُ فقراً الى الناس

ومن شعره : أعان طرفي على جسمي واعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غرآبا تجني عليّ يدي لا علم لي ان بعضي بعض اعدائي

هذا هو الشعر الذي يسميهِ الافرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) واكثر شعر العرب منهُ ، وهو مرآة شعور صاحبه وما يليهِ عليهِ قلبه ، ويزينهُ لهُ طبعه

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير اذا رعف اطلق اسراره ، وابان آثاره . وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد وأعسر من ذلك ان تجتمع بلاغة الشعر و بلاغة القلم. وقال العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، واليان ترجمان العلم

وقال : لا يُقدم على الخطبة الا اثنان فائق او مائق ، اما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنهُ كل خاطر يورث الخجل والانقطاع ، واما المائق فانهُ لا يبالي اخطأ أم اصاب . وقال : لو ان رجلين خطبا او تحدثا او احتجا او وصفا وكان احدهما جليلاً بهيًّا وليبًا نبيلاً ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلاً قيئًا (صغيراً ذليلاً) وباذ الهيأة (رثها) دميماً وخامل الذكر مجهولاً . ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ، ولشظلهم الشجب منهُ على مساواة صاحبهِ لهُ ، ولصار الشجب منهُ سبباً للعجب بهِ ، ولكان الإكثار في شأنه ، علة للإكثار في مدحه لان النفوس كانت لهُ أحقر ، ومن بيانهِ أيأس ، ومن حده أبعد ، فاذا عجموا منهُ على ما لم يكونوا يحسبونهُ ، وظهر منهُ خلاف ما قدروهُ ، تضاعف حسن كلامهِ في صدورهم ، وكبر في عيونهم ، لان الشيء من غير معدنهِ أغرب ، وكلما كان اغرب ، كان ابعد في الوهم ، وكلما كان ابعد في الوهم ، كان أظرف ، وكلما كان اظرف كان أعجب وكلما كان اعجب كان ابدع ، وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين ، فان ضحك السامعين من ذلك اشد ، وتعجبهم منهُ اكثر . والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد وليس لهم في الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى ، مثل الذي معهم في الغريب القليل ، وفي النادر الشاذ ، وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم ، والاصحاب في الفائدة من صاحبهم . وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم . ويرحلون الى النازح عنهم ، و يتركون من هو أعظم نفعاً ، واكثر في وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مؤنة واكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق ، والطارف على التليد

الى ان قال : فاذا كان الحب يعمي على المساوئ فالبغض ايضاً يعمي عن المحاسن ،

وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ، ومحصول حدود لطائف الامور ، الا عالم حكيم ، ومعتدل الاخلاط عليم ، والا القوي المنة ، الوثيق العقدة ، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الاعظم ، والسواد الاكبر . وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من اصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم ، كما يرغب عن بعض الحلال . قال المأمون : قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم ، فان كنت اردت هذا فوجهه الذي ذكرناه ، ولو قلت ان العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا يبلغ غايته ، ولا تستقصى اصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالامر على ما قلت ، فاذا كان الامر كذلك فابدأوا بالاهم فالاهم ، وابدأوا بالفرض قبل النفل ، فاذا فعلتم ذلك كان عدلاً ، وقولاً صدقاً .

ويتجلى على الجملة ان من الندرة ان يتم لانسان من المواهب والميزة ما تم لسهل ، فهو من مخضرمي [illegible] ذا ثقافة [illegible] راسخة ، ثقفه الخط العربي في [illegible] في التاريخ [illegible] [illegible] في امة قوية فتية [illegible] [illegible] اسباب النبوغ ما لم يكتب [illegible] طول اجله [illegible] انه [illegible] في سنة اربع وثلاثين ومائتين [illegible] انه اتصل بالرشيد في [illegible] من عمر صاحبه الجاحظ [illegible] [illegible]

[illegible] كتاب البخلاء [illegible] رسالة [illegible] [illegible] [illegible] في الكتاب [illegible]

« بسم الله الرحمن الرحيم : اصلح الله امركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من اهله . قال الاحنف بن قيس : يا معشر بني تميم لا تسرعوا الى الفتنة فان اسرع الناس الى القتال اقلهم حياء من الفرار . وقد كانوا يقولون اذا اردت ان ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً فانه انما يعيب بفضل ما فيه من العيب . ومن اعيب العيب ان تعيب ما ليس بعيب . وقبيح ان تنهى مرشداً [illegible] وما اردنا بما قلنا الا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا اصلاح فاسدكم وابقاء النعمة عليكم ، ولئن

اخطأنا سبيل ارشادكم ، فما اخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون انّا ما اوصيناكم الاّ بما اخترناه لانفسنا قبلكم ، وشهرناه في الآفاق دونكم . ثم تقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الاّ الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الاّ بالله عليه توكلت ، واليه أنيب) . فما كان احقكم في كريم حرمتنا بكم ، ان توعوا بحق قصدنا بذلك اليكم ، على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط يلتئم ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب براً وفضلاً ، لرأيتماني انفسنا عن ذلك شغلاً ، وان من اعظم الشقوة ، وابعد من السعادة ، الاّ يزال يتذكر زلل المتعلمين ، ويتنامى سوء استماع المتعلمين ، ويستعظم غلط العاذلين ، ولا يجعل حمد المعذولين » فبذا كانوا يرون في تقويم اقلام او الناهين والناقدين عليهم منهم ومن غيرهم ، في آثار كراهة الذين على بشطتها ، وانه ازاد بارادتهم على اخير تعليمهم ، وحفظ فضل اموالهم ، وانهم اخطأوا في صوغهم مواعيه ، ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً . وذكرهم بحكمة جميلة تلوهوا ان الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ، ولا يذكرون جهل المتعلمين وعبر عنه بسوء الاستماع ، وهو من ارق التعابير . وذكرهم بالآية الكريمة التي تلى العبد الصالح ، وبعد ان بلغ من قوله هذا الجهد وبسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله ، ودعوة الناس الى طريقته ، وابان انه اشتهر بها في العالم ، وانها مما لا يعده ثلثه في الشرف ، بل فضيلة من فضائل النفس . بعد هذا اخذ يخاطبهم ، ويورد لهم الامثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيرها فبدأها عبرة فقال :

« عيّرني بقولي لخادمي : اجيدي عجنه خميراً : كما احدثه فطيراً ، ليكون اطيب لطعمه ، وازيد في ريعه ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمة لأهله : املكوا العجين (شدوا عجنه) فانه احد الربعين . وعيّر علي قولي من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على حجم الكفاية ، واسرف من الكفاية ، فاضطررت الى تفريق اجزائه على الاعضاء ، والى التوفير عليها من لوطيفة الماء ، وجدت في الاعضاء فضلاً على الماء ، فعلمت انه لو كنت مكنت الاقتصاد في اوائله ، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج اوله على كفاية آخره ، ولكان نصيب العضو الاول كنصيب الآخر . فعيّرني بذلك وشنعوه بجهدكم وفجعوه ، وقد قال الحسن : وذكر السرف : انه ليكون في الماء ، وان الكلاء ، لتمر بالنهر فيشرب بذلك الماء فتسقي ارادفه بالكلاء » .